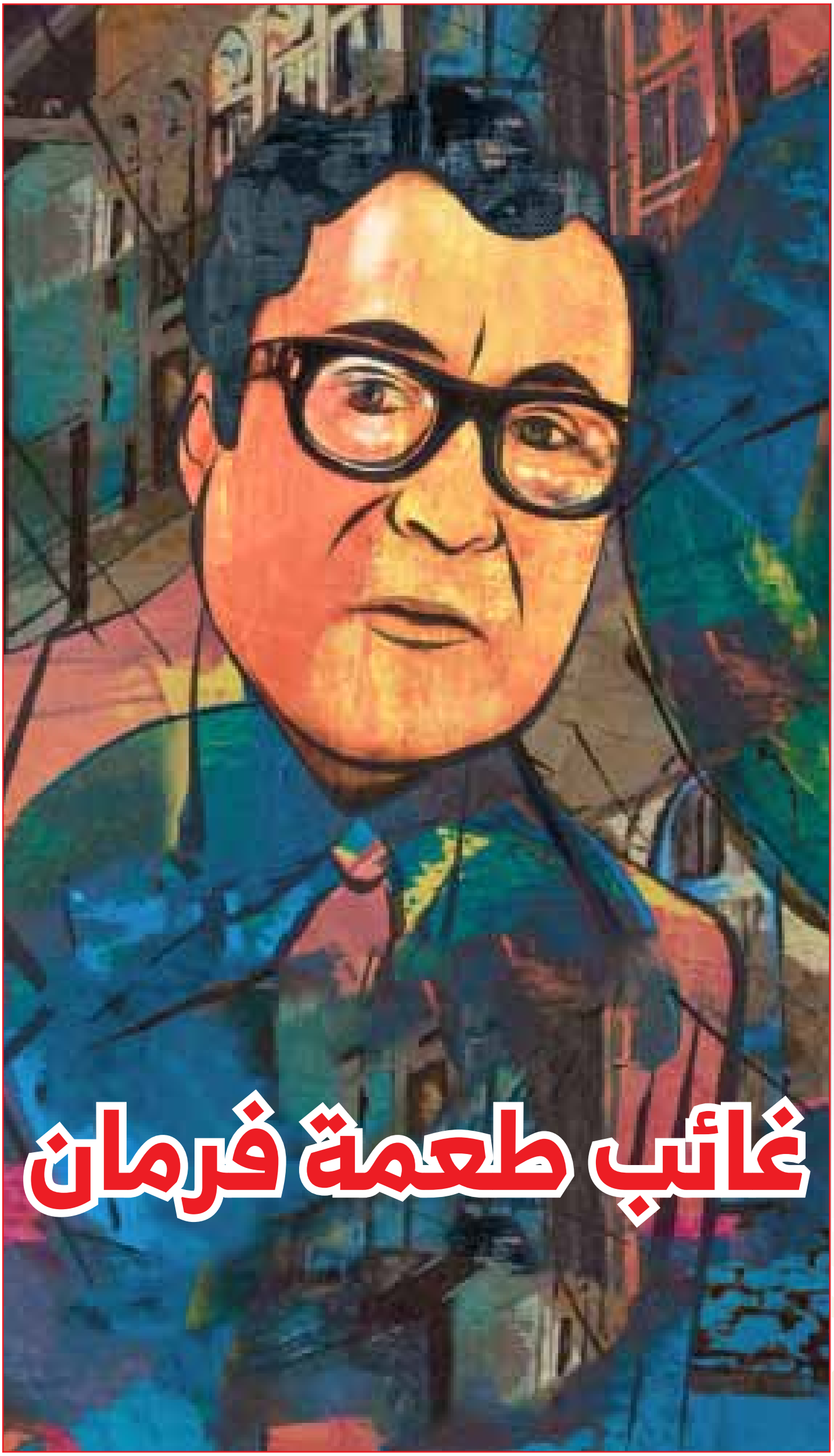

عراقيون
من زمن التوهج

غائب طعمة فرمان

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
المدى
للإعلام والثقافة والفنون
www.almadasupplements.com
"20عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"

رئيس مجلس الادارة
رئيس التحرير
فخري كريم

العدد (5714) السنة الحادية والعشرون
الخميس (25) تموز 2024

عراقيون
من زمن التوهج
"20عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"
العدد (5714) السنة الحادية والعشرون - الخميس (25) تموز 2024

ذكرياتي عن الروائي الراحل غائب طعمة فرمان

د. زهير ياسين شليبه

فرحت للغاية عندما قرأت خبرَ وضع نصب صغير للكاتب العراقي الراحل غائب طعمه فرمان في مكتبة الآداب الأجنبية "إنَسترأنكا" في العاصمة الروسية.

كنت أتمنى أن تتحول شقته في موسكو إلى متحف خاص به وطرحت هذه الفكرة وقتها على زميله الكاتب الراحل فؤاد التكرلي لينقلها الى المسؤولين، لكن يبدو أن هناك اموراً أهم من الثقافة تشغلهم كثيرا، ولا أدري هل تستلم أرملته إنا بيتروفنا تقاعدَه الخاص من الحكومة العراقية أم لا؟

أكثر من ثلاثة عقود مرت على دفاعي عن أطروحتي المكرسة لأعمال كاتبنا العراقي الراحل غائب طعمه فرمان، وأود اليوم في هذه المناسبة أن أكتب انطباعات جديدة لم اذكرها سابقا.

كنت متحمسا للكتابة عن غائب ط. فرمان بدافع حب الثقافة العراقية الوطنية وأيضا لأني أحببت "النخلة والجيران" التي قرأتها في بغداد حين إصدارها، رغم إنشغالنا بالروايات الأوروبية في ذلك الوقت، وأحسست أن هذه الرواية متميزة وأكثر تشويقية وسلاسة من الروايات العراقية الأخرى، وتعلقت فيما بعد بأعماله اللاحقة وبالذات "المخاض" و"خمسة أصوات".

ولابد لي هنا من أن اذكر أن الصديقين العزيزين فائز الزبيدي وزوجته سميرة يوسف اللذين شجعاني على هذه الدراسة، وهما مِن اول مَن طرحت عليهما الفكرة بعد أستاذتَي المشرفة الراحلة المستشرقة البروفيسورة فاليريا كيربيتشينكو حيث كنت أدرس في معهد الإستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية.

قد يكون هذا "الولاء" أو هذا الإعجاب بأعمال غائب فرمان سببا أو حاجزا منعني من رؤية الجوانب السلبية أو مواطن الضعف في أعماله، كما عبر لي بود أحد المستشرقين المتخصصين بالأدب الأذربيجاني في معهد الإستشراق الأستاذ توفيق ولا اتذكر لقبه، وقال لي أيضا بأنك ستعي هذه المسألة بعد عقد من الزمان عندما تعيد قراءة أطروحتك.

طبعا تقبلت رأيه، انا فعلا كنت واعيا لهذا الأمر وحاولت قدر المستطاع أن أكتبٍ عن غائب ط. فرمان بموضوعية مستئنساً بآراء الآخرين وبالذات الأكاديميين المستشرقين مثل البروفيسور جيراسيموف المتخصص بالأدب الفارسي و مشرفتي وآخرين، وأعتقد أني توقفتُ عند الآراء التي انتقدت اعماله، مثل طريقته بالكتابة ب" الأسود والأبيض" على حد تعبير جبرا ابراهيم جبرا.

أنا فعلا كنت متحمسا للكتابة عن غ. ط. فرمان لكن هذه الحماسة لم تكن "حباً" أعمى، ولهذا لم تمنعني عن النظرة الأكاديمية الموضوعية لنتاجاته وفرز سلبياته عن إيجابياته وملاحظة الفرق الكبير بينها والأعمال الكبيرة التي ترجمها أو قرأها وإجراء مقارنات حقيقية قدر المستطاع.

وقد استنتجت وأدركت فيما بعد أني إزاء كاتب عراقي وطني، ملتزم حتى العظم بقضيته العراقية لكن بدون تهريج، غير متحمس للحزبية بمفاهيمها الدعائية، شبه منفي، مغترب، مقيم في عاصمة شيوعية، لكنها تتنفس يوميا بالأدب الكلاسيكي الروسي أكثر من الأدب السوفييتي، متزوج من إمرأة من هذه البلاد، إسم إبنه سمير، يحبه كثيرا، يتمنى لو يتكلم العربية، مرتبط ارتباطا حقيقيا ببيئته وتجاربه الحياتية الشخصية وانتماءاته الوطنية والفكرية والثقافية وذكرياته القديمة وأجوائها وطبيعتها وحتى نمط الكتابة والتفكير، إضافة إلى معاناته من "الإحباط" رغم رفضه له في "ظلال على النافذة"، الأمر الذي قد يكون منعه من الإنطلاق بفكره وتجسيده له بروايات ذات مغزى فكري وفلسفي أعمق وغير مقتصرة على نمذجة الشخصيات العراقية ووصف المكان.

أتذكر أننا تحدثنا فيما بعد عن هذه الأمور عندما سألتة عن مقدمته بالإشتراك مع محمود أمين العالم لمجموعة "قصص واقعية من العالم العربي". كانت المقدمة خطابية ومتحمسة لأفكار الواقعية الإشتراكية بحيث إني كعادتيٍ مازحته عنها، وتجاوب معي وكان أكثر وضوحاً وصراحة، فكان أقرب ألى أفكار بيلينسكي النقدية ودوبرلوبوف حيث أبدى لي اعجابه الشديد به، واعتقد أنه ذكر لي بأنه كان يترجم دراسة نقدية له.

وقبل أن أنشر كتابي عن غ. ط. فرمان بالعربية في التسعينات، أعدت قراءة اغلب القصص العراقية الطويلة الصادرة قبل "النخلة والجيران" ومع ذلك ثبت لي مرة أخرى أن الأخيرة فعلا هي الرواية العراقية الفنية وأن مؤلفها حقا برع في تصوير البيئة والزمكان العراقيين وأجاد النمذجة وتصوير الشخصيات من الداخل والخارج وأدخل المونولوج وأظهر قدرة فائقة في إدارة الحوارات واختيار أوقات وأماكن مناسبة لها حسب مغزى روايته، واستعمل لغة "الشارع والساعات" كما يقول باختين بطريقة لا نجدها في عمل سردي عراقي آخر قبله لا في مقامة "رسالة العشق" لأبي الثناء الآلوسي ولا في "الرواية الإيقاظية" لسليمان فيضي ولا في "في "جلال خالد" لمحمود أحمد السيد، ولا في "نهاية حب" و "أناهيد" لعبد الله نيازي ولا في "الدكتور ابراهيم" أو في "اليد والأرض والماء" لذنون أيوب ولا في نتاجات عبدالمجيد لطفي ولا في "مجنونان" ١٩٣٨ لعبد الحق فاضل ولا في "أفول وشروق" خالد الدرة ولا رواية ليلى عبد القادر التي لم تنشر جزءهاالثاني، ولا حتى في "الوجه الآخر" ١٩٥٧ لفؤاد التكرلي والتي صدرت بعدها بعقد من الزمان تقريبا.

وفي الحقيقة قد أكد هذا الإعجاب أو الرأي أغلب الباحثين العراقيين مثل المرحومين الدكتور علي جواد الطاهر وعبدالإله أحمد والدكتور شجاع العاني والدكتور فاضل ثامر رغم "مآخذه" على تأثرها المباشر ب"زقاق المدق" لنجيب محفوظ إضافة إلى الدكتور نجم عبد الله كاظم في كتابه القيم عن الرواية العراقية.

هناك نتاجات قصصية طويلة عراقية كثيرة صدرت قبل "النخلة والجيران" وبعدها بفترات طويلة حتى التسعينات لم ترق كلها الى مستوى الكتابة الروائية الفنية الحديثة، ومن يدري ما الذي كان سيحدث لو لم يتأخر التكرلي في إصدار رائعته "الرجع البعيد"، التي اعتبرها أنا شخصيا الرواية العراقية الأرقى فنياً وحبكة ومضمونا وبناءً وأسلوباً، في فترة إصدارها طبعاً.

وأذكر أني أخبرت غائبا بإعجابي الكبير ب "الرجع البعيد" بعد أن استعرتها منه وأعدتها له، فوافقني وتجاوب مع إعجابي بها وقال لي بصدق وتلقائية وبإبتسامته المعهودة وبالحرف الواحد "فتح"، "كشف" في الرواية العراقية! لا

عراقيون
من زمن التوهج
"20عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"
العدد (5714) السنة الحادية والعشرون
الخميس (25) تموز 2024

اعتقد أن كاتبا عراقيا آخر سيبدي إعجابه برواية لزميل آخر مجايل لـه بنفس طريقة غ. فرمان العفوية.

ولعل هذا ما يؤكد استنتاجي بانه كان يريد أن يجدد اسلوبه ولهذا كتب "آلام السيد معروف" التي تختلف كثيرا عن أعماله السابقة. هذه الرغبة الشديدة في التجديد وجدناها عند محمود أحمد السيد الذي كان يريد أن يكتب روايات تحليلية كبيرة، أما غائب فكان يريد أن يكتب رواية واقعية باسلوب اكثر تجديدية وصنعة أدبية وتحليق لغوي انسيابي وانسجامي وبوليفوني ومتدفق.

قد يكون حقيقة أنه لم يعجب بفوكنر مثل صديقه ومجايله فؤاد التكرلي، لكني أعتقد انه لم يحب طريقته في رصد الأحداث، بل تمنى أن يتمكن من الكتابة بأسلوبه اللغوي لكن بلا تعقيدات تتطلب التركيز، وأن يمتلك ناصية اللغة ويتمكن منها، أحب آرثر ميلر بدون الإفصاح عن ذلك لكنه تأثر به كما هو واضح في "المخاض"، هذا هو همه ومعاناته وهدفه منذ قصصه الواقعية الأولى، وهو ما طرحه في روايته البوليفونية "خمسة أصوات"، وكان البطل يتألم لأن صديقه قال لـه ساخرا "أنت نسخة من غوركي". أعتقد أن الترجمة وبيئته غير العربية وظروف أخرى أعاقته من الوصول إلى لغة التدفق الروائي الرحبة في كل نتاجاته. ولهذا السبب نلاحظ أنه يسمو و "يطلع" في بعض المقاطع بينما "يخفق" أخرى، وهذه تحتاج إلى دارسين يركزون على هذا الجانب بالذات الذي لـه علاقة بمشغله البوأيتيكي أو الإبداعي التأليفي وظروفه.

اخترت الكتابة عن غائب طعمه فرمان رغم إغراءات أخرى كثيرة، وأذكر هنا أن أحد المستشرقين نصحني أن أختار القصة او الرواية الخليجية او السعودية على الأقل لأنها ستتيح لي فرص عمل أفضل وأكثر في هذه البلدان، وعندما دافعت عن الأطروحة بقيت عاطلا عن العمل وبلا جواز سفر، ذكرني هذا المستشرق بنصيحته القديمة لي "هل يستطيع غائب أن يجد لك عملاً؟ المفروض أن يساعدك في الحصول على عمل!" لم أفكر، لا أنا ولا غائب، بهذه الطريقة "الواقعية" او "المصلحية"، ولو كنت من هذا الصنف لسافرت الى العراق واستفدت من امتيازات أصحاب الكفاءات، لكننا لسنا من هذا النوع من البشر ولم أندم لحظة في حياتي على اختياري لهذه الموضوعة.

كان غائب متواضعا وساخراً ومخلصا وصادقا وعفويا وتلقائيا في حياته اليومية وكتاباته، ولأوضح ما ذكرته سابقا: أعتقد أن سوء صحته وانشغاله بالترجمة ومعاناته من الغربة وإقامته في بلد شمولي حزبي وأمور أخرى نعرفها صرفته عن التفرغ للكتابة بطريقة الروائيين المحترفين، التي من شأنها أن تجعله منتجاً محترفا غزيراً يتجاوز تجاربه الشخصية وأن يكون حرا في تفكيره بكل معنى الكلمة.

لقد نشرت كتابي عنه في بداية التسعينات على حسابي الخاص عن طريق دار الكنوز الأدبية ونفذ وكان اول اطروحة دكتوراه عن كل اعماله الصادرة من الأربعينات حتى منتصف الثمانينات، أي باستثناء "المرتجى والمؤجل" و "المركب". وأشكر في هذه المناسبة زميلي الدكتور الفنان فؤاد الطائي الذي نفذ تصميم غلاف الكتاب، والدكتور الراحل احمد النعمان على مقاله عن اطروحتي في صحيفة الوطن الكويتية التي كان يعمل مراسلا لها.

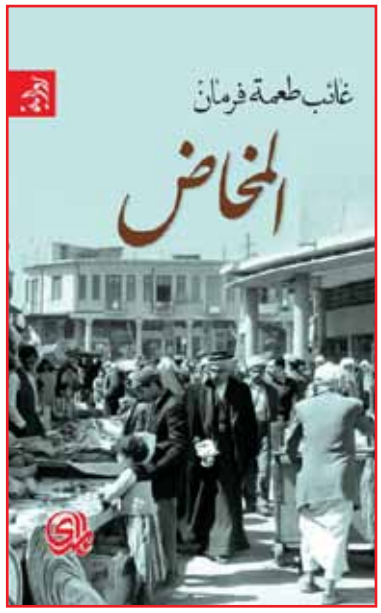

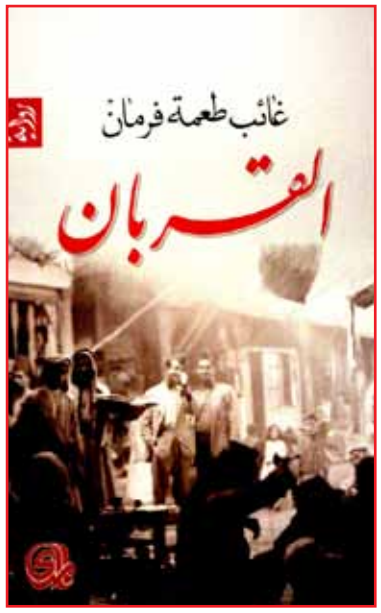

ونشرتُ مقالاتٍ كثيرةً عن غ. ط. فرمان في الصحف والدوريات مثل الإغتراب الأدبي والزمان والقدس العربي والمواقع الأدبية العراقية، ولاحظت ان بعض "النقاد" وكتّاب الأنترنيت ينقلون من كتابي او مقالاتي عن غائب بدون الإشارة الى مصدرها، وقسم منهم

يتحدثون عنه في محطات تلفزيونية، ومع ذلك أصبحت لا ابالي لأن المهم انهم يتذكرون هذا الكاتب الذي يجسد مصير أجيال مثقفين عراقيين كثر عانوا من الفاقة والحرمان والغربة والقهر السياسي.

اليوم يوجد أكثر من كتاب عنه، مثل كتاب الصحفي والفنان الراحل أحمد النعمان، الذي ساهمت به بعدة مقالات.

واحب أن اذكر هنا بأني بعثت مخطوطة كتابي عن غائب قبل نشرها إلى المرحوم أحمد النعمان عندما اخبرني عن مشروعه بتأليف كتاب عنه لثقتي العالية به وسعادتي لإهتمامه به.

وقرأت قبل فترة قصيرة مقالا للباحثة العراقية ميساء نبيل عبد الحميد تذكر فيه الدراسات المكرسة لأعمال غائب مثل اطروحة الدكتور علي ابراهيم، ودراسة الدكتورة فاطمه عيسى جاسم، ودراسة ماجستير لشازاد كريم إضافة إلى كتاب المرحوم أحمد النعمان وأطروحتي عنه، ونست أن تذكر كتاب الدكتور نجم عبدالله كاظم الذي أشرت اليه وكتابين آخرين عنه، وتنوي كتابة أطروحة دكتوراه مكرسة لموضوعة الغربة والإغتراب في أعمال غ. ط. فرمان باشراف الدكتور صالح الجميلي في جامعة صلاح الدين، واتمنى لها في هذه المناسبة التوفيق والنجاح.

تناولت في أطروحتي عنه، نشأةَ الروايةِ العراقية ومكانة "النخلة والجيران" في الأدبِ العراقي، وكل قصص غائب القصيرة ومقالاته الأدبية الأولى، التي لا يمكن الحصول عليها بسهولة حيث سافرت في الثمانينات إلى دمشق وبحثت في المجلات العربية القديمة عنها، ولا أنسى فضل موظف المكتبة الأستاذ الفاضل إبراهيم.

ثم درست عالمه الروائي. حللتُ كل رواياته الخمس

وركزت على موضوعاتها وبالذات الناستولجيا او العودة الى الجذور، والإغتراب والمكان والزمان والهرونوتوب "الزمكان" والأشكال الأليجورية بالذات في القربان، والبوليفونيا كما هو الحال في "خمسة أصوات"، وأسلوب عودة البطل كما هو الحال في "المخاض".

قصصه الأولى تتسم بالبساطة والبدائية بالذات مجموعته الأولى "حصيد الرحى" وفيها مقاطع متطابقة تقريبا مع قصص مكسيم غوركي ذكرتها في كتابي ومقالاتي.

رواياته تختلف كثيرا عن قصصه فهي أكثر فنية وتطورا من حيث انسيابية اللغة والمقومات الأخرى التي ذكرتها سابقا.

أما من حيث تأثره بالكتاب الآخرين، لم يرضَ غائب بفكرة تأثر "النخلة والجيران" ب "زقاق المدق" رافضا بذلك افكار الدكتور فاضل ثامر.

أما بخصوص تأثره بالصخب والعنف فقد ذكر لي واقعة، وهذه أول مرة أكتبها للتاريخ، بأن أحد الدارسين العراقيين جاء الى موسكو والتقاه طارحا عليه اسئلة لغرض اطروحة الدكتوراه وذكر لي اسمه لكنه طلب مني على طريقته المحببة بالنسبة لي ان اكتم الأمر وكأنه سر خطير، أذكر اني وقتها ابتسمت له وفعلا نسيت الموضوع.

قال لي غائب بأن هذا الباحث طرح مقارنات ومقاربات بين "الصخب والعنف" و "ظلال على النافذة"، واستطرد قائلا باللهجة العراقية، "قلت لـه فعلا أجر لـك إذن"! كان يقصد الدكتور نجم عبدالله كاظم.

أنا شخصيا فهمت منه أنه فرح بهذه المقارنة لكنه رفضها فيما بعد، وطبعا هذا ماتأكد لي بعد ان حصلت على دراسة د. ن ع. كاظم عن الرواية العراقية.

قد يكون حقيقة أنه لم يعجب بفوكنر مثل صديقه ومجايله فؤاد التكرلي، لكني أعتقد انه لم يحب طريقته في رصد الأحداث، بل تمنى أن يتمكن من الكتابة بأسلوبه اللغوي بلا تعقيدات تتطلب التركيز، وأن يمتلك ناصية اللغة ويتمكن منها.

تأثر غائب. ط. فرمان بآرثر ميلر كما هو واضح في "المخاض"، التي تألق بها في وصف الإنسان الصغير، هذا هو هدفه وهمّه ومعاناته منذ قصصه الواقعية الأولى، وهو ما طرحه في روايته البوليفونية "خمسة أصوات"، حيث كان البطل يتألم لأن صديقه قال له ساخرا "أنت نسخة من غوركي".

أي إنه كان يتأثر بالكتاب الواقعيين المنفتحين بحيث يظهر ذلك جليا على مستوى اللغة في كل الخطاب الروائي من الكلمة الأولى حتى نهايتها، وهذا ما عناه باختين بمفردة الرواية.

أعتقد إن الترجمة وبيئته غير العربية وظروف أخرى أعاقته من الوصول إلى لغة التدفق الروائي الرحبة في كل نتاجاته. ولهذا السبب نلاحظ أنه يسمو و "يطلع" في بعض المقاطع بينما "يخفق" في أخرى، وهذه تحتاج إلى دارسين يركزون على هذا الجانب بالذات الذي لـه علاقة ب"حماسته" ومشغله البوأيتيكي أو الإبداعي التأليفي وظروفه.

كان غائب ط. فرمان ممتنا جداً عند مقارنة "النخلة والجيران" برواية "فونتامارا" للكاتب الإيطالي إينازيو سيلوني، التي ترجمها وفقدها في القاهرة.

وللتاريخ أيضاً أقول هنا إني شاهدت فيلم "فونتمارا" في سينما جامعة موسكو، وقررت أن أقرأ هذه الرواية، ثم قرأت على ظهر غلاف أحد الكتب العربية الموجودة في مكتبة غائب الشخصية إعلان عن ترجمته لهذه الرواية وترقب إصدارها، لكنها لم تنشر، بل صدرت فيما بعد باسم الشاعر الأردني عيسى الناعوري، الذي ترجمها من اللغة الإيطالية.

بعدها حدّثت مشرفتي عن هذه الرواية، وفي النهاية أخبرني غائب عنها في احدى الجلسات وكان فعلا معجبا ومتأثرا بها. وكما أشرت سابقا فإن هناك أوجه شبه واضحة بين "المخاض" و "موت بائع جوال" لآرثر ميلر، التي وجدتها في مكتبته، وهذه الحقائق مذكورة في كتابي وفي مقالي عن المؤثرات الأجنبية في أدب غائب طعمه فرمان.

أعتقد أن الكاتب الراحل الصديق فؤاد التكرلي من اكثر الكتاب رفضا لهذ هذه المقولات لكنه والحق يقال إنه كان متفتحا معي في الحديث عن هذه الأمور ويطلب من الأكاديمي أن يدعم آراءه ب"الأدلة والبراهين" على التأثر، وهنا لابد ان اذكر انه كان كريما فتح مكتبته لي.

موضوعة التأثر بالكتاب الآخرين تخلق حساسية عندهم لكن الأكاديمي غير معني بمشاعرهم إذا كان متأكدا من رأيه، وتعلمت وبالذات هنا في جامعة كوبنهاجن أنه ليس لمجرد أن يقرأ الروائي كتابا معينا لنقول إنه تأثر به، كما هو الحال عند بعض النقاد الصحفيين وليس الأكاديميين طبعا.

بالنسبة لكاتبنا العزيز الراحل غائب كان ايضا كريما معي وفتح مكتبته امامي، إلا أنه لم يكن يحتفظ باصداراته القديمة، حتى مجموعته القصصية الأولى "حصيد الرحى" لم تكن لديه، واعتقد "النخلة والجيران" أيضا لم تكن موجودة عنده وكنا نضحك كثيرا لهذا الأمر. واذكر حقا أنه كان مثلا يضع صحيفة منشور فيها مقابلة معه على المنضدة وكنا أنا وإياه نضع أكواب الشاي عليها!!

لابد لي وأن أقول إن غ. فرمان كان يذكر بعض اصدقائه مثل المرحومين أحمد النعمان ورشيد رشدي، الذي عرض علي تعاونه معي والدكتور ضياء نافع وآخرين.

ولابد لي من أن أشكر الروائي برهان الخطيب، الذي فتح لي مكتبته وأعارني بعض الكتب العراقية القديمة، كذلك بعض المستشرقين منهم فاليريا نيكولاييفنا وشاغال وجوكوف الذي كانت لديه أغلب القصص العراقية، وطبعا موظفي مكتبة معهد الإستشراق وآخرين لم تعد الذاكرة تحفظ أسماءهم.

أما بالنسبة الى آراء أصدقاء غ. فرمان عنه فلم استفد كثيرا منها واغلبها انطباعات شخصية، وأشير في هذه المناسبة أني فوجئت بأن أحد المقربين جدا منه كتب في ذكرى رحيل الكاتب، بأن زوجة الأخير إنا بيتروفنا ترجمت روايته "خمسة أصوات" رغم أني ذكرت في أطروحتي أن هذه الرواية ترجمتها المستشرقة لينا ستيبانوفنا.

كان المرحوم غائب يزورنا باستمرار في كل مرة ندعوه عندما كنا نقيم في موسكو، وآخر مرة دعوته لزيارتي في الدنمرك وفرح للأمر لكنه تمرض وغادرنا وتأثرنا بفقده كثيرا وبقي في قلوبنا ولم يغب عنا لحظة واحدة حتى الآن.

غائب طعمة فرمان وذكرى مقال

سعد هادي...

في العام ١٩٩٢، وبعد شهور على رحيل غائب طعمة فرمان الأبدي (في موسكو ١٩٩٠)، زرت محلته القديمة "المربعة" التي سكنها حين كان في بغداد، كما زرت البيت الذي كان يعيش فيه وجلست لدقائق في ما كانت يوماً ما غرفته، تعرفت أيضاً على شقيقيه: علي وسلمان، وكلاهما أصغر منه، وقد حدثاني بما تبقى في ذاكرتيهما عنه، ولوقتٍ قصير كنت بين بقايا العالم الحقيقي الذي جمع غائبٌ شظاياه، ليكوِّن منها نسيج روايته الكبيرة: النخلة والجيران، ثم ليكوِّن منها في مرحلة تالية رواياته الأخرى التي تشكل عالمه المتخيل أو "يوتوبياه" الروحية ذات الفصول المتعددة، وكانت للنخلة التي قيل لي إنها قطعت منذ زمن بعيد مثل نخلات كثيرة في بلاد الحزن الأبدي، ظلال لا مرئية في الزقاق المؤدي الى البيت، لقد حاولت أن أقارن بين مكونات ومظاهر وأشكال الزقاق الحقيقي أو بالأحرى صورته الراهنة وبين زقاق آخر خيالي، تجسَّد على الورق، ليتحول مع مرور السنوات ومع عمليات التحول المستمر في معمار المدينة وتكوينها المادي وبناها الإجتماعية والروحية الى أشكال نقيضة أو الى أطلال لذكرياتٍ ومشاهد لا يمكن استعادتها.

وظلت تلك المحاولة تراودني وأنا أكتب مقالاً يستند الى المادة المثيرة التي حصلت عليها: ذكريات ووثائق ومشاهدات ورسالة بخط يده وأفكار أو أشباه أفكار عن العمل الأدبي وجدواه وأصوله وصيرورته الأولى، لم يكن موضوعاً بل كان تجربة في الرؤية واستعادة الماضي وإعادة صياغته بطريقتي الخاصة، أردت أن أعيد ما رآه غائب أو ما تأمل من خلاله، أو ما ساهم مكانياً في تشكيل وعيه، كما حاولت أن أستعيد بعضاً من ملامح صورة الروائي شاباً.

عدت الى الزقاق وحيداً لمراتٍ عديدة في ما بعد، لأسباب مختلفة، ليس من بينها أنه زقاق فريد فأشكال بيوته وطرازها المعماري، تتكرر الى ما لا نهاية في الجزء القديم من بغداد، وليس لأنني كنت أبحث عن ملامح الوجوه التي تجسَّدت على صفحات رواياته، أو تكررت بسماتها من رواية الى أخرى، ولا لأني كنت أعاني من نوستالجيا أحاول علاجها أو البحث عن أسبابها، بل لقد كنت أمتثل لإرادة حلم مر بي في تلك الأيام وظلت تفاصيله تلاحقني، وَما زلت أشعر بحزن عميق كلما تذكرت تلك التفاصيل أو استعدتها عرضاً: كنت أجلس في غرفة غائب أو غرفة شبيهة بها، وكانت هناك كوة في السقف يتساقط التراب منها وفي جانب من الغرفة هناك خزانة كتب وأريكة ومرآة كبيرة معلقة على الحائط، وكانت الكاتبة الراحلة حياة شرارة تجلس على الأريكة وفي يدها أوراق تعيد قراءتها، كانت الأوراق تتساقط من يدها وتختلط بالتراب، الغرفة شبه مظلمة وليس فيها سوى فانوس يُصدر ضوءاً شاحباً، بعد قليل دخل غائب الى الغرفة وتبعه رجل عجوز وخرجا بدون أن يقولا أي كلام، نهضت أنا من مكاني وقد كنت أجلس على الأرض ولحقت بغائب ولكنه كان قد اختفى، خرجت من البيت وسرت في الزقاق وحيداً فلم أجد أحداً أيضاً، كانت أبواب البيوت والمحلات مغلقة وهناك ركام من التراب يزداد ارتفاعاً ويسد الطريق أمامي، ثم لا شيء بعد ذلك.

تلك هي تفاصيل الحلم بإيجاز، حلم حزين، بدرجة لا يمكن وصفها ولا سردها ولا تدوينها على الورق، ربما كان الحزن نبوءة بشكل ما بالموت المفجع للكاتبة حياة شرارة التي انتحرت لاحقاً- ١٩٩٧، أو كان نتاج اقتران بين ميتتين مأساويتين، إحداهما حدثت فعلاً والأخرى على وشك الحدوث، أو لعله "أي ذلك الحزن" كان اختزالاً لحزنٍ جماعي غلَّف حيواتنا في تلك السنوات.

لم يقيض للموضوع أن ينشر بسبب فقرة فيه تشير إلى ما فعلته العائلة بكتب غائب بعد شباط ١٩٦٣ "في طقس فولكلوري ظلَّ يتكرر في تاريخنا السياسي والإجتماعي"، إذ دفنت تلك الكتب على عجل وبدون انتباه لمحتوياتها، بل لأنها كتب ليس إلا، دفنت مثل أجساد حية وضاعت آثارها، وستظل ضائعة الى الأبد، أما الموضوع فقد ظلَّ بين أوراقي لأشهر ثم أخذه صديق مني وسافر، ولم أعرف مصير الموضوع ولا مصير صديقي.

سأذكر هنا أنني رأيت غائب طعمة فرمان مرة واحدة فقط، وقد حدث ذلك بصدفة فريدة، كان قد عاد الى بغداد في شتاء عام ١٩٧٤ ليشارك في مهرجان المربد أو ليحضر بعض جلساته، وفي ليلة من ليالي مدينته الألفية الأثيرة، دخل إلى قاعة اتحاد الأدباء وجلس على مائدة مجاورة، وسط مجموعة من أصدقائه، كانت هيئته تناقض ما كان لدي من انطباعات عنه: كنت أتصوره طويلاً فإذا به قصير ونحيف، وكنت أتصوره مثالاً نمطياً للشخصية البغدادية: بتدفقها وطلاقتها فإذا به صامت أو هكذا رأيته طوال الجلسة ولم تكن تفصلني عنه سوى خطوتين، يوجز ما يقول بصوت خافت وعبارات حذرة، بدأت تتلعثم تدريجياً مع تلاحق الكؤوس التي تجرعها بسرعة.

كنت قرأت آنذاك روايتيه: "النخلة والجيران" و"خمسة أصوات" واكتشفت عبر القراءة عالماً أعرفه جيداً ولكن لا أحد اقترب منه أو حاول إعادة تأليفه على الورق، ظلَّ عالماً مجهولاً وسيظل هكذا لزمن طويل، وبعد شهور ومع صدور روايتيه "المخاض" و"القربان" صرت أعتقد أن العالم الروائي الذي فتح غالب أبوابه هو عالم متعدد السبل والإتجاهات والوجوه وإن الرحلة إليه قد تبدأ ولكنها لا تنتهي، كان عالماً سحرياً بالقدر نفسه الذي كان فيه عالماً واقعياً، يختار الروائي عناصر مادته من الحياة ومن مظاهرها وإشكالاتها وطبقاتها الروحية والمعرفية المتتالية، ولكنه لا يعيدها إلى ذلك العالم، ورحت أقارن بين فرمان وكتّاب أعرفهم، فتيقنت وما زلت على ذلك اليقين: أن روايته "النخلة والجيران" هي من بين أجمل ما قرأت عراقياً وأنها رائعة لا تتكرر وقد لا توجد في أدبنا كله رواية تقترب منها.

أما حين قرأت روايته الأخيرة "المركب" في فترة لاحقة، وقد كانت الخاتمة لمشروعه الروائي، فقد أعدت في ضوء القراءة، تأمل عناصر تجربته والتعرف عليها من زوايا جديدة، إضافة الى المقارنة بين شطحات البداية والنزوع الى المغامرة والاكتشاف وبين الرؤية الناضجة والحرفية والإحاطة بمشكلات الواقع العراقي والتي لم يكن غائب قد عرفها عن قرب "وهو البعيد في منفاه الموسكوفي لثلاثة عقود متتالية"، ثم في إيجاد البنية الروائية المقنعة القادرة على احتواء تلك المشكلات وإعادة إنتاجها فنياً، لذا ستظل "المركب" لغزاً بالنسبة لي وسيظل بناؤها وشخصياتها ونسيج العلاقات فيها بل وأيضاً رمزيتها، جزءاً من أسرار غائب كاتباً روائياً وهي أي "الرواية" دليل على تمثله الدائم للروح العراقية وقدرته في التعبير عنها، ولولا "النخلة والجيران" لاعتبرت "المركب" بلا تردد من أهم أعماله وأكثرها جرأة واكتمالاً في الرؤية والبناء، إنها شهادة من كاتب بعيد، حالم، تأمَّل طويلاً في موضوع يعرفه ووصل الى أعماقه ثم عاد ليضع أمامنا ماً قبضت عليه أصابعه من تلك الأعماق، وهي "أي المركب" خاتمة فريدة لمشروعه الروائي وخلاصة لتجربته الطويلة في الكتابة التي بدأها منذ أواخر الأربعينيات إلى جانب كونها علامة متميزة في الرواية العربية التي جعلت من غائب أحد أساطينها.

إن ما يشدني الى غائب وربما هو أيضاً ما يشد الكثير من قرائه هو روحه العراقية التي تتوارى خلف كل جملة من جمله، ثم حسه الإنساني العالي، وكذلك حياديته كروائيٍ إذ لا يكاد يظهر إلا بشكل عابر في نصوصه، تاركاً الحلول الأساسية في أيادي شخصياته أو مخلوقاته الروائية، كما يشدني إليه أيضاً تأمله في المأساة العراقية ذات الأوجه المتعددة وسعيه لإعادة تمثيل فصول تلك المأساة على الورق، وهي المأساة نفسها التي قتلته حزناً في ١٧ آب عام ١٩٩٠، حين بدأ نشيج أمنا الرؤوم، الحرب، يتصاعد ليوقظ كائنات العالم السفلي من رقادها، وليدخل العراق منذ ذلك الحين في متاهة ما زال يدور فيها، حتى لتبدو عملية خروجه منها محض وهم.

عراقيون
من زمن التوهج
"20عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"

غائب طعمة فرمان... إعادة عالم زائل إلى جغرافيا الوجود

لؤي عبد الإله

قد يكون مناسباً تذكر حقيقة أن غائب طعمة فرمان، الذي رحل في مثل اليوم من ١٩٩٠ عن ٦٣ عاماً، قد كتب كل رواياته الثماني خلال سنوات إقامته في موسكو، حيث كان يعمل مترجماً في دار التقدم، فروايته الأولى "النخلة والجيران"، انتهى منها عام ١٩٦٤ أي بعد مرور ٢٠ سنة على أحداثها، وبعد اختفاء كثير من معالمها القديمة وحلول شوارع ومحلات ومدارس ومستشفيات ومساكن جديدة محلها.

تشكل هذه الرواية مع الروايتين اللاحقتين؛ "خمسة أصوات" (صدرت عام ١٩٦٧)، و"المخاض" (عام ١٩٧٣) ثلاثية مترابطة (رغم تغير شخوصها)، والبطل الحقيقي فيها هو بغداد نفسها، وما أعنيه ببغداد، سكانها الذين صاغت أزقتها ونهرها وموقعها وتاريخها القديم مزاجهم ولهجتهم؛ قيمهم وقناعاتهم؛ حرفهم وعاداتهم.

تتناول هذه الروايات ثلاث فترات زمنية ذات تأثير بالغ على ما ترتب عن كل منها؛ "النخلة والجيران": أواخر الحرب العالمية الثانية واقتراب خروج القوات البريطانية من بغداد والمدن الكبرى... "خمسة أصوات": عشية إلغاء الانتخابات التشريعية عام ١٩٥٣ وفرض الأحكام العرفية؛ "المخاض": بعد عام ونصف العام على وقوع ثورة ١٤ يوليو (تموز)، وبداية الاحتراب الداخلي بين حلفاء الأمس، ولعل أنسب تعبير لوصف هذه اللحظات التاريخية هو "العتبة".

في "النخلة والجيران" يستخدم غائب الحوار وسيلة لتقديم شخصياته، إذ يحتل ما يقرب من ثلاثة أرباع صفحات الرواية، وبفضل استخدامه للعامية تصبح شخصياته حقيقية فنياً على الرغم من أنها نمطية ومتشابهة بعضها مع بعض.

وفي مسعاه للقبض على صورة مدينة زائلة وحياة أشخاص مهمشين على عتبة اختفاء مهنهم البائدة باستخدام الحوار بالدرجة الأولى، يكسر غائب ثلاثة مبادئ أساسية في الحبكة الروائية: إدخال إستكشافات مستقلة عن سياق الرواية مثل مشهد الشجار الذي يجري داخل الخان بين رديفة زوجة حمادي وخيرية زوجة الفراش رزوقي، ولعل غائب أراد إحياء شخصية المرأة السفيهة (القرج) التي يتجنب لسانها سكان الحي جميعهم، وهنا يسود الروح الكرنفالي (حسب مفهوم باختين) حيث تنقلب المعايير رأساً على عقب ويتطاير شرر الملاسنة بين المرأتين على الزوجين المسكينين والسائس الطيب مرهون.

والمبدأ الثاني هو غياب النمو الدرامي للرواية، فمقتل مؤجر الدراجات الطيب، "صاحب" على يد الشقي "محمود" جاء من دون مقدمات، والتصعيد الدرامي يأتي في آخر الصفحات خارج سياق الرواية حين يقرر حسين الانتقام لصديقه "صاحب" بقتل قاتله والتحول هو نفسه إلى "شقي". أما المبدأ الثالث فهو النهاية المفتوحة التي تأتي بعد قتل حسين لمحمود في مرافق أحد الفنادق وهروبه.

الشيء الأساسي الذي جمع هذه الشخصيات هو أنها عبرت "العتبة" وتُركت هناك: فـ"الطُولة" (حظيرة الخيول) بيعت وحوِّلت إلى مصنع سجائر، وبذلك فقد حمادي ومرهون عملهما، وبيت سليمة الخبازة يباع، فتنتقل إلى غرفة صغيرة هي وزوجها الثاني مصطفى. كذلك الحال مع بغداد نفسها، فالحرب العالمية الثانية قد وضعت أوزارها أخيراً، وبدأ الجنود البريطانيون بمغادرتها.

في رواية فرمان الثانية "خمسة أصوات"، تبرز بغداد ثانية، بعد مرور ما يقرب من عقد على انتهاء الحرب العالمية الثانية. وهنا نجد أبطال الرواية أشخاصاً ولدوا بعد تأسيس الدولة العراقية بقليل.

إنه عقد الخمسينات، حيث دخل الغرب بقوة في محلات أورزدي باك بشارع الرشيد، جنباً إلى جنب، مع المقهى السويسري والنوادي الليلية والبارات الفخمة على شارع أبو نؤاس، إضافة إلى دخول الكتب مختلفة الاتجاهات والأفكار، سواء بالإنجليزية أو مترجمة إلى العربية.

يستخدم غائب في نسج "خمسة أصوات" مبدأ الروندو الموسيقي، حيث التيمات الموسيقية تتناوب بانتظام، وهنا نجد الشخصيات الخمس تجمعها اهتمامات مشتركة وعمر متقارب وعتبة حياة واحدة رغماً عن اختلاف طموحات كل منها. يتقمص غائب شخصية "سعيد"، وهذا ما سمح لنا بأن نعرف أكثر عنه من الآخرين، وسمحت لغائب بأن يمزج ما هو متخيل بما هو حقيقي دون أن نكتشف الخط الواهي الفاصل بينهما، وهذه هي إحدى ميزات الرواية. كذلك تنجح الرواية بخلق عنصر التشويق، بعد تسلم "سعيد" الذي كان مسؤولاً في صحيفة "الناس" عن قسم الشكاوى رسالة من امرأة مجهولة تدعوه فيها لزيارتها. ولم يكن الوصول إلى بيتها سهلاً، إذ إن دخول أي غريب لزقاق بغدادي آنذاك يعدّ مغامرة بحد ذاتها.

استخدم غائب في سرد الرواية ستة رواة فلكل شخصية راوٍ وللشخصيات الخمس معاً راوٍ خاص بها.

تفتقد الرواية التصعيد الدرامي أو الغور العميق في الشخصيات. بدلاً من ذلك يستخدم غائب الحوار وسيلة أساسية للتعرف إليها من خلال ما تعبّر عنه من آراء أو ما تنقله من تداعيات عن ماضيها أو ما تعرفه عن شخصيات أخرى. وباستخدام أسلوب التناوب بين هؤلاء الرواة تتحقق للرواية ديناميكيتها التي تشد القارئ حتى آخر صفحاتها.

يمكن القول إن الروح الكرنفالي (الذي عرّفه باختين) أو جزءاً من عناصره قد يلبس الرواية، ففكرة العتبة والتجوال الحر لبعض الأبطال في ثنايا المدينة متنقلين ما بين باراتها وشوارعها وأزقتها عنصر أساسي فيها. ولتحقيق ذلك، رسم غائب شخصياته بطريقة كاريكاتورية (إلى حد ما) فمنحهم قدراً من تشويه ساخر مبطن يطلق عليه باختين "الغروتسك"، وهو أحد عناصر الروح الكرنفالية الأساسية في الرواية.

وهذا العنصر التشويهي المشترك ناجم عن كون هذه الشخصيات تنتمي إلى أول جيل متعلم تلقى جرعة ثقافية غربية كبيرة، على الرغم من أنها تعيش في مجتمع تحكمه سكونية هائلة، فبينها وبين الآباء والفئات الشعبية فجوة ثقافية كبيرة، وما زالت المحلة البغدادية منغلقة على نفسها، وما زالت المدن الأخرى غير مهيأة لقبول زوار من المدن الأخرى، إلا إذا كان لديهم أقارب فيها.

كل ذلك يقود أبطال غائب في "خمسة أصوات" إلى

ارتداء نظارة مستوردة تمكنهم من رؤية الواقع، كأنه يتماهى مع واقع غربي ما. فعبد الخالق الذي يحلم بأن يكون روائياً ينظر إلى محيطه بعيني الروائي الأميركي فولكنر، فهو على الرغم من تعاليه على الآخرين بمن فيهم أصدقاؤه، يندفع للمساهمة في صد خطر الفيضان، بسبب ما كتبه فولكنر عن فيضان حل بالمسيسبي وكيف كان رد فعل أهالي بلدته في الجنوب الأميركي تجاهه.

كذلك الحال مع الشاعر شريف، الذي يتقمصه الشاعر الفرنسي بودلير المتوفى عام ١٨٦٧، فيقلده في جرأته وسأمه وتشرده وتعلقه بغانية سوداء، وفي بغداد يتعلق الشاعر شريف بالفتاة صبرية، المومس الأمية هزيلة البنية فيسقط عليها صورة تلك الغانية السوداء التي تغنى بها بودلير كثيراً.

أما سعيد فيجد نظارته في الكتب السرية التي تصل إليه من صديقه "طالب" السجين السياسي في نقرة السلمان، إذ توصل أم "طالب" إليه كتاباً لبليخانوف وآخر لجدانوف.

وفي مجتمع ذكوري لا يرى الرجل حوله إلا أمه وأخواته وقريباته يسبِّب ظهور أي امرأة سافرة في مكان عام خلخلة جماعية. ففي المقهى السويسري الذي كان يلتقي به الأصدقاء الخمسة أحياناً، تستدير رؤوس المثقفين فيه ولعاً صوب امرأتين سافرتين ظهرتا على حين غرة. وهذا ما يدفع شريف إلى القول إن العراقيين ثوريون بسبب انفصال الرجال عن النساء في الحياة اليومية.

تترك الرواية النهاية مفتوحة، إذ تنتهي بهجرة سعيد إلى سوريا للعمل هناك، وترك الأبطال الآخرين يعبرون عتبتهم، كل حسب طريقته، ومعهم يعبر العراق عتبته الأخرى.

في رواية فرمان الثالثة "المخاض"، يعود الراوي – البطل إلى مدينته بغداد بعد وقوع ثورة ١٤ يوليو (تموز) بعام ونصف العام. ومنذ البدء يُصدَم بحقيقة لم تخطر على باله: اختفاء المحلة التي ولد وترعرع فيها عن الوجود مع كل المحلات المجاورة ليحل محلها شارع "النضال" الذي كان في طور الإنشاء. ومع انقطاع صلته بعائلته نتيجة عدم وصول رسالته إليهم، يضطر الراوي للإقامة في محلة شعبية مع عائلة السائق العم نوري الذي أوصله أولاً من المطار إلى مكان محلته.

تأتي عودة البطل كريم إلى بغداد بعد حصوله على وظيفة مترجم في وكالة أنباء، والرواية تنشغل بمتابعة حياته اليومية ولقاءاته بزملائه في العمل؛ ضاربتي آلة طابعة آمنة وماجدة والمترجم داود ثم حل المترجم الفلسطيني الأصل إسماعيل لاحقاً محل الأخير.

تأخذ الحوارات مساحة كبيرة في الرواية تصل إلى ١٦٠ صفحة بالكامل من ٣٦٠، وإذا أضفنا الأجزاء الأخرى فسيغطي الحوار ما يقرب من ثلثي الرواية. وهذا بحكم محدودية صوت البطل الذي يسرد لنا الحكاية بضمير المتكلم. هذه الحوارات تشمل قدراً من الجدل واعترافات وتداعيات خواطر. وفي حركة البطل هناك قدر كبير من العفوية، فهو يلتقي ببعض الأصدقاء القدامى عن طريق الصدفة مثل محسن ومهدي.

الرواية تفتقد إلى النمو الدرامي، لكن رغبة القارئ في التعرف على هذه الشخصيات التي تبدو حقيقية (وعلى الأغلب هي كذلك) يظل محدوداً بمدى انفتاحها مع الراوي كريم.

كذلك فإن الراوي الذي نعرف من نقاشاته وآرائه أنه ماركسي وحريص على تحقق الاشتراكية ولا يرى في الاحتراب الداخلي الذي تفجر في العراق بين التيارين الشيوعي والقومي إلا دليلاً على حقيقة الصراع الطبقي، وأن الانتقال إلى الفردوس لا بد أن يمر عبر التضحيات، لكن "آمنة" التي ظلت قلعة محصنة أمام كل محاولاته لكسب حبها، كانت لها وجهة نظر أخرى: "إنها السادية التي سكنت المجتمع".

وفي لقائه برفيقه القديم مهدي، يستغرب أن يضع الأخير نظارة سوداء، فيخبره أن أحد إخوته ينوي قتله بسبب أفكاره، أما محسن الذي أصبح مديراً عاماً ويختلط برجال الأعمال فيخوض مع البطل كريم جدلاً طويلاً عن ضرورة توقف الثورة عند مرحلتها البورجوازية، وفتح الباب لرجال الأعمال العراقيين كي يطوروا المجتمع، لكن كريم يحتد ضده، فهو لا يريد من الثورة أن تتوقف حتى تتحقق الاشتراكية.

هنا للمصادفة اليد الطولى، فكثير من اللقاءات تحكمها الصدفة، وبفضل الصدفة يتمكن غائب من إنهاء الرواية على فضاء مفتوح يحمل كل الاحتمالات، وهذا من خلال جعل العم نوري يضرب بسيارته سائق دراجة شاباً. وتنتهي الرواية بشفاء الشاب وتنازله عن حقه وبراءة العم نوري الذي اكتفى القاضي بسحب إجازة السوق منه بسبب كبر سنه وضعف بصره.

تقترب هذه الرواية في سياقها من أدب المذكرات، وقد يجد القارئ في ديناميكية السرد ترهلاً هنا وهناك واستيلاء الجدل متعدد القناعات عليها، لكنها الرواية الوحيدة التي كتبت عن تلك الفترة الحرجة في تاريخ العراق بموضوعية، وما جعلها شيقة اليوم هو أن غائب منح أبطاله فرصة متساوية في التعبير عن آرائهم دون أن ينحاز إلى بطله الشيوعي، على الرغم من أنه سلمه قيادة السرد. وهذا ما يجعل القارئ بعد الانتهاء منها ينحاز إلى وجهة النظر هذه أو نقيضها.

• عن صحيفة الشرق الاوسط

ولي حاجة عند العراق وأهله

عبدالله حبه

في بداية عقد الستينيات من القرن الماضي جاءت الى موسكو طالبة دراسات عليا قادمة من سيبريا لمناقشة رسالة الدكتوراه حول إبداع الكاتب الألماني توماس مان. وشاءت الأقدار أن تلتقي في مكتبة لينين رجلا أصبح من أبرز الروائيين ليس في العراق فقط، بل وفي العالم العربي. وقد أصبحت هذه الطالبة زوجة غائب طعمة فرمان.

وكنت قد تعرفت على غائب في مكتب "شينخوا" في بغداد ومن ثم في جريدة "إتحاد الشعب" لدى العمل في الصفحة الثقافية، ومن ثم إلتقيته في بكين في عام ١٩٥٩،حينما دعانا نزار سليم الملحق الثقافي في السفارة العراقية آنذاك لتناول وجبة"بطة بكين "الشهيرة. لذا كان من الطبيعي أن أزوره لدى وصولي الى موسكو للدراسة، حيث جئت الى شقته الصغيرة بالقرب من مترو "الجامعة" برفقة الشاعر عبدالوهاب البياتي. علما أنه لم يلتق آنذاك إلا القلائل من المقيمين والدارسين بموسكو ومنهم الفنان محمود صبري والملحن فريد الله ويردي وشلة صغيرة من العراقيين كانت ترتاد مقهى فندق موسكو. وعلمت لاحقا سر إنجذابه إليهم حيث كان يستمع الى أحاديثهم ومشاكلهم وذكرياتهم عن العراق، والشئ الأهم للإستماع الى اللهجة العراقية.

وقد عانى غائب في البداية كثيرا من عمله كمترجم حيث كانت دار "التقدم" تنشر الكتب عن الأحداث السوفيتية بالدرجة الأولى، ولم يكن فيها الكثير من الأدب.فوجدته مرة حائرا في ترجمة كتاب عن تربية الضأن في تركمانيا، إذ لم يكن يعرف المصطلحات التي كان يبحث عن معانيها في القواميس بلا فائدة.علاوة على أنه ترجم الكتاب من اللغة الإنكليزية، فهو لم يتعلم الروسية بصورة جيدة إلا بعد مرور حوالي عشر سنوات، ومارست دورا رئيسيا في ذلك قرينته الروسية إينجا.

حاولت مرارا إغراء غائب بالذهاب الى المسرح لكنه كان يرفض بحجة أنه لا يعرف اللغة التي يتكلم بها الممثلون. لكن حدث مرة أن أرتدى بدلة أنيقة وربطة عنق فسألته الى أين ذاهب، فأجابني أنا ذاهب الى المسرح مع "آنسة روسية". وروى لي آنذاك قصة تعارفه مع هذه الآنسة في مكتبة لينين حين ضل الطريق في قاعاتها الفسيحة فقدمت له المساعدة. وكانت خاتمة هذه العلاقة أن دعاني في ١٢ كانون الثاني/يناير عام ١٩٦٢الى مكتب تسجيل عقود الزواج في شارع جريبويديف بصفة شاهد. وبدأ تعارفي مع إينجا التي عرفت الكثير عنها من أحاديث غائب لاحقا. وكانت الحياة الزوجية لغائب قد شهدت فترات مد وجزر كما في أية اسرة لزوجين ينتميان الى مجتمعات مختلفة.

لقد مارست إينجا بتروفنا دورا هاما في النشاط الإبداعي لغائب سواء في الترجمة أم التأليف. ولهذا لجأت إليها بعد وفاته أن تحدثني عن بعض مراحل هذا النشاط. علما إنها في البداية لم تهتم كثيرا بعمله ككاتب روائي وحتى إقتادتني مرة الى المطبخ في بيتهم بعيدا عن إذن زوجها وسألتني:"هل إن رواية "النخلة والجيران" تمثل فعلا حدثا هاما في الأدب

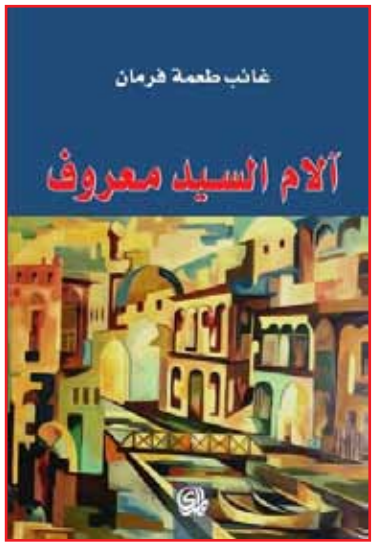

العراقي". وعندما إجبتها بالإيجاب سألتني عن أعماله الأخرى في هذا المجال.

وأبدت إينجا إهتماما كبيرا بكل ما يخص العراق والحركة الثقافية فيه والآثار القديمة وصارت تطالع مراجع كثيرة عن تاريخ العراق وأهله وأحبت العراقيين. كما بدأت بحكم عقليتها الأكاديمية في تكوين أرشيف عن غائب يتضمن مقالاته ومراسلاته وبعض الدراسات والتراجم. وقد حاولت بعد وفاة غائب الإتفاق معها بشأن جمع كل هذه المواد في كتاب لنشره. ووعدتني بالعمل في هذا الإتجاه، وفيما بعد في الذكرى العاشرة لوفاته أعطتني مجموعة من الأوراق ضمنتها توثيق سيرة حياته ورؤيته للأدب الروسي وترجماته. وقد كتبت بإسلوب الباحثين العلميين بحكم كونها تعمل بهذا المجال في معهد الفلسفة التابع لإكاديمية العلوم الروسية. وكنت أنتظر الحصول على مواد الأرشيف الأخرى ولاسيما مقالات ومراسلات غائب مع شخصيات ثقافية عربية وأجنبية. لكن تأجل ذلك. وكانت ترفض الحديث عن ذلك لاحقا كلما فاتحتها في الأمر وكانت غاضبة بسبب نشر أعمال غائب في العراق وإخراج فيلم تلفزيوني عن "النخلة" بدون أخذ موافقتها. وتولد لدي إنطباع بأنها تشك في وجود مصلحة شخصية لدى أصدقاء الكاتب في نشر أعماله عموما ومنها ترجمته لرواية الكسي تولستوي "بطرس الأكبر" والتي أنجزها غائب ولم تنشر بعد وفاته وحتى الآن.

علما إن إينجا لا تتطرق في بحثها الى جانب مهم من حياة غائب وهو موقفه من الثقافة العراقية والغربة والمغتربين وكذلك مقالاته حول الأدب الروسي. فقال غائب في حديث أدلى به الى مجلة "المنار" الصادرة عن نادي ١٤ تموز(آب/أغسطس ١٩٨٩) في السويد: "من الصعب الحكم أو ليست لدي المؤهلات للحكم على الثقافة العراقية في الداخل لأنني لم أعرفها إلا عبر مصادر قليلة تقع في يدي بين حين وأخر". بينما قال عن حياته في المنفى لدى سؤاله هل يعتبر المنفى شرا أم له فضائل:" يمكن (أن تكون له فضائل) لحد معين اذا كان النفي لسنة او سنتين او لثلاث. انا كنموذج كتبت رواياتي الثلاث الأولى في المنفى، وقد تكون أكثر إلتصاقا بواقع الحياة العراقية من غيرها،و لكن لا يمكن الحكم عامة على إن الغربة لها فضائل، فإذا كانت الغربة لفترة قصيرة او محدودة يمكن أن تكون لها فضائل ولكن عندما تكون غير محدودة ولا تعرف نهايتها..فإعتقد إن مساوئها أكثر من فضائلها"..."والغربة هي الغربة..ويبقى العراقي عراقيا وتبقى مشاكل الطفولة والصبا التي قضاها في العراق تطغي على مشاعره كلها.. يبقى الحنين للمطبخ العراقي والأغنية العراقية والفولكلور العراقي...".

لقد مضت عدة سنوات ولم يتحقق مشروع إصدار كتاب عن أرشيف غائب والدراسة التي كتبتها إينجا بتروفنا. ولهذا وجدت من واجبي نشر هذه الدراسة بصورة منفصلة، بعد أن فقدت الأمل في إقناع ورثة غائب فرمان في نشرها والموافقة على إعادة نشر بعض أعماله المترجمة ورفضوا طلبات دار "المدى" ودار "الكلمة" (الإمارات العربية المتحدة) ودور نشر أخرى بهذا الشأن، من دون ذكر الإسباب.

الرواية التي ستبقى أمد الدهر

خضير فليح الزيدي

> قبل عشر سنين أو أكثر قليلاً، لم تول مراكِز البحث الثقافي في العراق - على قلتها- والمهتمون بالتراث الأدبي، اهتماماً موسعاً بأصحاب الريادة كما يحصل في مصر أو لبنان أو البلدان التي تحترم أدباءها الراحلين، ولم تؤشر على نطاق واسع عبقرية الكاتب العراقي والروائي الفذ غائب طعمة فرمان إلا ما ندر.

غائب العراقي الـذي ولد في بغداد، وتوفي في صقيع موسكو، أحب بغـداد الأزقة والدرابين والحارات، بل شغـف بها حـدّ الوله والهيام، ممـا انعكس على معظم سردياتـه. لكنـي ككاتب عراقـي كنت أبحـث عما كان مخفيـاً من حياته الاجتماعية وتمثـلات ثقافته الأولى في معظـم رواياتـه، من روايـة "النخلـة والجيران" حتـى "خمسة أصوات" أو "القربـان" أو "آلام السيد معـروف" وغيرهـا. أجزم هنـا أن فرمـان كان يعرف تماماً أنه يكتب الرواية الطليعية، التي ستبقى إلى أمد الدهر، كعلامة عظيمة ورائدة في مجمل النتاج العراقي والعربـي في الآداب الخالدة. تلك المعرفة جعلته يشق طريقاً مختلفاً عـن مجايليه كفؤاد التكرلي، وعبد الملك نـوري. كذلك مما يؤشر إلى حياته الاجتماعية أنه من عائلة فقيرة وكادحـة تنحدر من حي المربعة البغدادي الذي تشكّل على نسيج مجتمعي متنوع. كذلك، يعرف عنـه أنه كان قليل الاختلاط، لكنـه يهتم كثيراً بظاهرة الرصد الميداني للظواهـر المجتمعية، ولم يكن متمرداً علـى الواقع أو السلطة في حياتـه لكنه يرفض الظلم، وقد انغمس في حركة اليسار العراقي. وعندما ضاقت حلقة المضايقات السلطويـة، هاجر وفي رصيده أكثر من رواية عراقية.

فرمان هو نجيب محفوظ العراق. كتب عنه مرة جبرا إبراهيـم جبرا في إحـدى إشاراته النقديـة المهمة بأن فرمـان يركّـب الواقـع تركيبـاً مدهشاً كمـا في رواية "النخلـة والجيران"، ولم يقل عنـه أنّه ينتمي لتيار الواقعية الاشتراكية كما كان شائعاً آنذاك.

مـا زلت أعمـل على روايـة عراقية بطلهـا غائب طعمة فرمان، رواية تقـترب في أسلوبها من معظم سردياته لشغفـي بعبقريتـه وبريادتـه التـي أذهلـت المتتبعين لمسيرة الرواية العراقية المتعثرة من بعده.

رغـم ميوله اليسارية، إلا أنّنا لا نعـثر على إشارة إلى شغفـه بالحركـة الشيوعيـة في أعماله التسعـة، لكنه في المقابـل كان متحرّراً مـن ثقـل الأيديولوجيا أثناء الكتابـة، مع العلـم أن بعضها ينعكـس بظلاله على ما ذكرت. ومما يُذكر من مجايليه أنّه كان شديد الاكتئاب ولا يقيـم علاقات إلا مع قلّة مـن الكتاب. وحين يجلس في مقهـى "البرازيلي" ذائع الصيـت في بغداد، كانت مائدتـه تختصر علـى القاص عبد الملك نـوري، وفؤاد التكرلي وإدمون صبري. كانت المائدة عامرة كل يوم، وفيهـا الوقـت المخصّص لمراجعة الصفحـات الثقافية للصحف اليومية، ومن ثم يتم تداول القصة والرواية وطرق الكتابة الشائعة آنذاك. هو قرأ نجيب محفوظ، لكن الأخير لم يقرأ روايات غائب طعمة فرمان.

في أحـد الأيـام، زرت الهيـكل المتداعي لمنـزل فرمان، وقمـت بتصويره ونشـره على صفحتـي الشخصية، وقـد وجدت تجاوبـاً هائلاً من المتابعـين للمنزل الذي ألهم الرجل هذا الإبداع في روايته "النخلة والجيران" وتحـت عنوان لافت في حينها "بيت فرمان ـــ لا نخلة ولا جـيران"، إذ هاجر معظم سكان حي المربعة خارج المنطقـة وتحـولـت إلى منطقـة صناعيـة وتجاريـة ومخازن لـلأدوات الاحتياطية، وبذلك فقد الحي الملهم الأول للكاتـب، نكهـة المنزل/ الأيقونـة. لكن ما حصل أن المستثمـر هدم كامل البيت كي يتخلص من هاجسه مـن أن السلطة ستحوّله بيتاً تراثيـاً، وإن كان ذلك لن يحصل إلا في الأحلام. لكن جذر النخلة بقي في مكانه مع جهود آلـة "البلدوزر" العملاقة التـي سوّت البيت بالأرض.

عراقيون
من زمن التوهج

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
المدى
للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم
رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسـين

هيئة التحرير
غادة العاملي
رفعة عبد الرزاق

يمكنكم متابعة الموقع الالكتروني من خلال قراءة QR Code:

www.almadasupplements.com

Email: info@almadapaper.net

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

غائب طعمة فرمان والحداثة السردية

فاضل ثامر

يعد الروائي الراحل غائب طعمة فرمان أحد الرموز الثقافية الكبيرة التي دشّنت مشروع الحداثة الروائية من خلال روايته الرائدة "النخلة والجيران" التي أعقبها برواية "خمسة أصوات". صدرت الرواية الأولى عام ١٩٦٦، والثانية عام ١٩٦٧. وليس معنى هذا أنّ الرواية الحديثة لم تدخل العراق قبل هذا التاريخ، فقد عرفت الثقافة العراقية الرواية الحديثة منذ مطلع القرن العشرين وبالذات منذ مطلع العشرينيات من خلال رواية "جلال خالد" للروائي العراقي محمود أحمد السيد. أعقبتها مجموعة تجارب لذنون أيوب، وعبد الحق فاضل، وعبد المجيد لطفي، وجعفر الخليلي، لكنها لم تتجاوز عتبة البدايات البسيطة في العمل الروائي.

يمكن أن نقول إنّ التجديدات التي دخلت الكتابة القصصية والسردية التي دشنتها تجربة التكرلي وعبد الملك نوري في نهاية عقد الأربعينيات، قد شكلت عنصراً مهماً وأساسياً في خلق حساسية ثقافية وفنية جديدة تعتمد كثيراً على أسلوب الكتابة الحديثة، منها توظيف المونولوج الداخلي ومحاولة أسلبة حوار الشخصيات من خلال اعتماد الكلام المحكي في هذا المجال. وهكذا استطاع غائب طعمة أن يؤسس على هذه الأرضية العراقية إذا جاز التعبير، بالإضافة إلى إفادته إلى حد ما من الروائي نجيب محفوظ. إذ قدم فرمان تجارب تتضح فيها هذه الأرضية وهذه التأثرات. لكنّ هذا لا يعني أنّه كان مستلباً بهذه التأثرات، بل بالعكس، فأنا اعتبره مجدداً بدءاً من روايته "ظلال على النافذة" وهي عمل يتمتع بخصوصية واضحة. أما رواياته اللاحقة التي كتبها تحت إيقاع المنفى المؤلم، فكانت فعلاً مؤثرة.

استطاع غائب تطوير لغة سردية وقصصية مناسبة لحركة الأحداث والشخصيات تبتعد عن اللغة الصحافية والأسلوب البلاغي التقليدي في الوقت نفسه، لأنّها أصبحت لغة حداثية ويومية أيضاً. بنيات الروائي غائب طعمة هي بنيات درامية وصراعية وبنيات مسرحية متكاملة، بحيث أنّ عملية التحويل للصياغة المسرحية ميسرة مثلما وجدنا كيف تحولت "النخلة والجيران" إلى عمل مسرحي ناجح وموفق من خلال عرض قدمته "فرقة المسرح الفني الحديث" في العراق. لنقل إنّ غائب طعمة فرمان تجربة خصبة ومهمة في مسار التطور الروائي، وضع اللبنات الأساسية التي ساعدت لاحقاً على إنضاج تجارب كبيرة مثل تجربة فؤاد التكرلي في رواية "الرجع البعيد". تجارب غائب اتسمت في وقت باكر باحتوائها على تعدد صوتي أي بنية بوليفونية، أي أنّ الشخصيات تحاول أن تعبّر عن منظوراتها الفكرية والحياتية والرؤيوية والسياسية دونما تدخل من قبل المؤلف أو من قبل ذات المؤلف الثانية، فكانت إيذاناً مهماً بهذا التأثير المباشر للرواية البوليفونية، وابتعدت عن أحادية الصوت أو المونولوجية.

غائب شخص ملتزم اجتماعياً، لكنه لا يقحم تصوراته ولا يفرضها على شخصياته، بل يمنحها حرية أن تفكّر وتعبّر عن وجهات نظرها ورغباتها. ففي روايته "المخاض"، هناك محاولة للترميز العميق أو ما يمكن أن نسمّيه الترميز المتوازي حيث البطل الذي عاد إلى العراق بعد غربة طويلة يبحث عن أسرته التي انتقلت إلى مكان مجهول وفقد الاتصال بها. هذا في واقع أعقب أحداث ثورة ١٤ تموز مباشرة وسط حالة من القلق السياسي الذي تسيد المشهد، فضلاً عن الصراع السياسي المعروف بين اليسار واليمين ووسط حالات التذبذب والتمرد. إذ برز بحث عن حلّ آخر ربما مثلته الشخصية الثانوية في الرواية (عبد الصمد) للخروج من هذا المأزق الذي أعقب الثورة ولم يستطع أن يواصل مشروع التغيير الثوري والاجتماعي حينذاك حيث انتهى الأمر بانقلاب اليمين وسيطرته على البلاد. كانت عملية البحث في الرواية، تتوازى والقلق الناجم عن عدم وضوح الرؤية لإيجاد بديل التغيير. لذلك مثلما عجز البطل عن العثور على أسرته في نهاية المطاف، بقي مشهد الصراع مفتوحاً على تأويلات كثيرة في المجال. كان غائب نقطة شروع في تحديث الرواية وإدخالها في مشروع العصر الحداثي الذي وجد ضالته لاحقاً في تجارب السبعينيات والثمانينيات ومطلع الألفية الثالثة عندما ظهر جيل كبير من الروائيين العراقيين ممن أصبحوا ينافسون الروائيين العرب وروائيي المنطقة في تحقيق إنجازات على مستوى الرؤية والأسلوب والسرد والبنيات الداخلية.

• عن جريدة الاخبار اللبنانية

"20عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"

عراقيون

من زمن التوهج

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
المدى للإعلام والثقافة والفنون